جولات روحية
في سورة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

لا تزال المجتمعات منذ خلق الله الدنيا منطوية على عناصر الخير والشر ، والصلاح والفساد ، والحق والباطل ، ومن تطلب الدنيا على غير ما هى عليه فقد طلب محالا ، وتصور ما لا يمكن أن يكون .

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب فى الماء جذوة نار !

ولو كان عهد من العهود أجدر بأن يتطهر من عناصر الشر والفساد والباطل ، لكان هذا العهد هو عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، ولكنه كان ـ كما يصوره القرآن الكريم ـ عهد تضال بين الإيمان والكفر ، وبين الإيمان والنفاق ، على أشد ما يكون النضال ، حتى نصر الله الحق على الباطل ، وأحبط أعمال الكافرين والمنافقين ، وهى بشرى لكل من استقام على صراط الله العزيز الحميد ، واحتمل فى سبيل استقامته ضروب الأذى والاضطهاد : أن يحسن الله عاقبته ، ويخذل خصمه ، مهما طال أمد الكفاح ، وتطاول أهل البغى والعدوان .

ولقد جلت جولات روحية فى سورة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى سورة مدنية ، تعرف أيضا باسم سورة « القتال » ، فوجدت هذه السورة الكريمة مبنية على عقد كثير من المقارنات بين أهل الحق وأهل الباطل ، على وجوه متنوعة هى جديرة كل الجدارة بأن ندرسها ، لنتفهمها ونفقه مراميها .

* * *

١ ــ فأول ذلك افتتاحية السورة الكريمة ، وهى توضح هدفها من أول الأمر ، وتؤلف مطلعا بارعا لها ، إذ تعقد المقارنة الأولى بين الكافرين والمؤمنين ، فتقول :

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد ـ وهو الحق من ربهم ـ كفر عنهم سيئاتهم

وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

فهذه الآيات الثلاث توازن بين الفريقين المتقاتلين اللذين لا يخلو منهما زمان ولا مكان ، وهما : « فريق المؤمنين وفريق الكافرين » فتسم الأولين بميسم الكفر على أسلوب الموصول والصلة ، فتقول : « الذين كفروا » ولا تقول : « الكافرون » لأن الموصول وصلته يشعران بتعليل الحكم إذا كان الكلام متضمنا حكما ، ثم تصفهم بوصف جامع لكل أساليب الشر والباطل والفساد ، على شدة رجازته ، فتقول : « وصدوا عن سبيل الله » ، وبذلك تبين أن كفرهم لم يكن مجرد عقيدة قلبية لهم ، ليس لها آثار إيجابية عملية ، ولكنه عقيدة ينبعث عنها كل شر ، فإن الصد عن سبيل الله هو مدافعة الناس عن كل ما هو خير ، فليس لله سبيل تنسب إليه إلا سبيل الفضيلة في أية صورة من صورها : في العقيدة ، وفي الأعمال ، وفي السلوك الاجتماعي ، وفي كل ما هو خلق كريم تنعكس آثاره الطيبة على الأفراد والجماعات ، فإذا كان هناك من يترصد صراط الله المستقيم ليصد الناس عن سلوكه ، فأولئك هم جنود إبليس الذي يقول : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

ثم تأتي بعد ذلك بالحكم عليهم ، وبيان عاقبتهم فتقول : « أضل أعمالهم » ، أي أبطلها وأذهبها ، على حد قوله تعالى في آية أخرى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » .

وبعد أن يتحدث مطلع السورة عن الكافرين ويصفهم بصفتهم الجامعة لمختلف أساليبهم في معاداة الحق ، ويحكم عليهم بضلال أعمالهم وبطلانها ، يذكر المؤمنين ، فيختار لهم أسلوب الموصول والصلة ، إذ يقول : « والذين آمنوا » ليغرس في النفوس من أول الأمر سر فلاحهم وصلاحهم ، فإن « الإيمان » هو القوة التي يصدر عنها كل خير ، والتي تمنح صاحبها هدوء النفس ، وراحة البال ، والتي تدفع إلى الجهاد والتضحية في سبيل كل معنى شريف ، ثم يقرر أنهم مع إيمانهم « عاملون » لأنه لا فائدة في الإيمان إذا كان مجرد صورة ظلية ساكنة لا حراك بها ، ولا خير

فى صاحبه مالم يعمل ويتحرك ويجل فى ميادين السعى والجهاد غير وان ولا وكل، ولذلك يتبع الله الإيمان « بالعمل » فى هذه الآية وفى غيرها من آيات الكتاب العزيز، فيقول: « والذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى آمنت قلوبهم اعتقادا، وانقادت جوانحهم عملا وجهاداً، فتلاقت بذلك بواطنهم وظواهرهم، ثم يصفهم الله تعالى بوصف هو من قبيل عطف الخاص على العام فيقول: « وآمنوا بما نزل على محمد » ليبين بذلك بياناً فاصلا أنه لابد من الإيمان بهذا الرسول الكريم الخاتم بعد بعثته، مشيراً إلى أن الذين يؤمنون بالرسل قبله ولا يؤمنون به، لم يحققوا « شرط » الإيمان المقبول، ولم يستحقوا أن يسلكوا فى عداد الذين وعدهم الله بالنجاة، وما أبلغ الجملة المعترضة التى جاءت بعد ذلك فى قوله تعالى: « وهو الحق من ربهم » فإنها بيان للحقيقة، وتمش مع المنطق، كأنه تعالى يقول لهم: إننا لم نشترط الإيمان بما نزل على محمد إلا لأنه الحق الذى صدر من عند الله رب العالمين.

وبعد ذلك يأتى الحكم وبيان العاقبة: « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ». والإنسان مهما آمن وعبد الله وأخلص، لا بد أن يقع فى هفوات، وأن تصدر منه سيئات، فما لم يعلم أن رحمة الله تعالى أوسع من ذنبه، وأنه جل شأنه سيتغمده برحمته وفضله فإنه يدركه اليأس والتراخى عن العمل الصالح، وربما خرج بذلك إلى الزيغ وارتكاب السوء، فالله تعالى يتكفل لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأن يكفر عنهم ما عسى أن يكون لهم من سيئات، أو أن يكونوا قد اقترفوا من هفوات، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وإن الله تعالى يقول: « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ».

وقوله تعالى: « ويصلح بالهم » يدل على أن مجتمع أهل الإيمان هو مجتمع القرار والسكينة والطمأنينة، فإن صلاح البال إنما يكون بصلاح كل أمر، واستقامة كل شأن.

والشعوب إذا صلحت أحوالها، واستقامت شئونها، هدأ بالها، واستقرت وسكنت وتمتعت بالحياة السعيدة فى ظل هذا الهدوء وهذا الاستقرار.

وقد التقت الآيتان على هذا المعنى حيث تقول هذه الآية: « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »، وتقول الأخرى، وهى فى سورة النساء: « نكفر عنكم سيئاتكم

وندخلكم مدخلا كريماً ، وليس فى الكلام ما يدل على أن هذا المدخل الكريم الذى وعد الله به عباده هو الآخرة فحسب ، حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم مقيم ، ولكن الوعد الإلهى صالح لأن يراد به أيضاً المدخل الكريم فى الدنيا ، حيث الهدوء واستقرار النفس ، والنجاح فى الحياة ، وأن يتبوأ الناس فيها منازل كريمة ، ومراكز حسنة .

وبعد أن تنتهى هذه « الموازنة » بين الذين كفروا والذين آمنوا ، ويتبين منها مصير هؤلاء وهؤلاء يبين الله تعالى سر هذين الحكمين ، وأن كلا منهما إنما صدر عن عدل وحكمة وسنة إلهية لا تتبدل : « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ، أى : فلذلك أبطلنا أعمال أهل الباطل ، وأصلحنا بال أهل الحق ، وليس من سنتنا أن نسوى بين هؤلاء وهؤلاء « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » ، « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار » .

ويختم الله هذه الموازنة بقوله : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » لتكون العبرة عامة فى كل زمان ومكان ، ولئلا يعتبر خصوص فى الكفار على عهد معين دون عهد آخر ، ولا فى المؤمنين كذلك ، فالكفار فى كل زمان ومكان هم الكفار ، والمؤمنون هم المؤمنون .

* * *

٢ — وموازنة ثانية تأتى بعد ذلك لبيان حكم الله فيما يجب أن يأخذ به المؤمنون هؤلاء الكافرين الوثنيين من عنف وشدة ، ومن حرب لا هوادة فيها ، تفريعاً على ما تقدم ذكره فى الموازنة الأولى من أوصاف لهم لا يستحقون معها المسالمة والمهادنة .

وذلك قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ، سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

فهذه الآيات الثلاث تبدأ ببيان حكم الله فيما يعامل به الكافرون ، وتأتى « الفاء » فى أول الكلام إيذاناً بأن الحكم الذى سيذكر هو تفريع عما سبق ، فكأن تقدير الكلام : إذا كان هذا هو حال هؤلاء الكافرين ، وكنتم وإياهم على طرفى نقيض ، فليكن الأمر بينكم وبينهم على ما يحكم به العقل والمنطق السليم بين النقيضين فهل يجتمع النقيض والنقيض .

يصور الله المؤمنين مجاهدين مسيطرين ، لهم القوة ، وفى يدهم زمامها ، لأنه يأمرهم بضرب رقاب الكافرين إذا لقوهم ، وبأن يثخنوهم إثخانا ، أى يمعنوا فيهم قتلا وقهرا ، حتى إذا تحقق هذا القهر وذلوا واستسلموا انتقلوا إلى مرحلة أخرى هى شد الوثاق - أى الأسر - وذلك كقوله تعالى فى آية أخرى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » أى حتى يحطم شوكة الكافرين تحطيما ، لكيلا تقوم لهم قائمة ؛ لأن الشرك والوثنية لا يحترمان أمام دين التوحيد ، ولا يمكن أن يقبل لهم وضع فى أية أمة مخلصة لعقيدتها .

وينبغى أن يفهم أن هذا إنما هو بالنسبة للشركين المعبر عنهم هنا بقوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا » .

وأما أهل الكتاب فهم فى ذمة المسلمين ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، ومن حقهم أن يعيشوا بينهم أحراراً يؤدون شعائرهم ، ويزاولون طقوسهم ، وشتان بين ذى وثن من الأوثان ، وذى دين من الاديان ، فلا يقل أحد : أين حرية الاعتقاد ما دام الاسلام يأمر بضرب الرقاب والإثخان وشد الوثاق ؟ لا يقل أحد ذلك ، لان الحرية لا تكون فيما يخالف المبدأ الاساسى الذى تقوم عليه الامة ، وهذه الامة هى أمة التوحيد ، بل إن التوحيد هو الحقيقة الاولى التى جاءت بها الرسل ، وأجمعت عليها الأديان ، فالإسلام يحترم أديان المخالفين مادامت أديانا ، أما الوثنية والشرك ففساد فى الفطرة ، وإهدار للعقل والمنطق والدليل الواضح ، وإهدار لكرامة الإنسان فى أبشع صورة من صور الإهدار ، حيث يعبد الانسان العاقل المدبر المتصرف الذى سخر له كل مافى الكون ، حجراً أو شجراً أو مخلوقا كائناً ما كان .

ولا يصح أيضاً أن يقال : يجب احترام حرية العقيدة إذا كان هذا القول فى

معرض الإبقاء على إلحاد الملحدين ، ونظريات الوجوديين ، وفلسفات المارقين ، وأمثال هؤلاء وهؤلاء ممن يستخفون بالعقول ، ويهزءون بالأديان ، فليس هناك منطق يحمى هؤلاء أو يقبل السكوت على خيالهم العقلى والعملى ، وما لهم ولأمثالهم إلا ضرب الرقاب تطهيراً للشعوب والجماعات منهم .

وقد فرق القرآن الكريم بين المشركين وأهل الكتاب ، فأمر بقتال المشركين عامة ، ولم يقبل تخلية سبيلهم إلا إذا تخلوا عن شركهم ، وذلك حيث يقول الله جل شأنه : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » فهو يأمر بقتالهم ولا يرضى منهم بغير التوبة وإقامة الصلاة ، أى « بالاسلام » ولا يجعل أمد قتالهم منتهياً إلا بذلك ، أى أنه لا يرضى بأن يعيش الكفر - فى صورة الشرك أو الوثنية أو الإلحاد أو اللادينية - مع دين الحق جنباً إلى جنب ، بينما يقول فى شأن أهل الكتاب : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » أى عن طاعة والتزام بنظام المجتمع الاسلامى بحيث لا يخشى شرهم ولا انتقاضهم على دولة الاسلام ، فإذا دفعوا الجزية برهاناً على ذلك ، فهم إذن فى ذمة المسلمين ، كأهل كتاب فاءوا إلى رشدهم ولم يغلوا فى دينهم ، وابتعدوا عن صور الشرك والكفر الأساسية ، وإن خالفوا فى الدين ، « فلنعايشهم » ولنسالمهم ما داموا لنا مسالمين ، وعن الإلحاد والعناد والخروج على الله ناكبين .

وبذلك يتبين أن الموازنة هنا تفرض المؤمنين غالبين قاهرين ، لهم قوتهم واستطاعتهم وحرصهم على تنفيذ حكم الله فى الكافرين ، وهو ضرب الرقاب ، وشد الوثاق . وتفرض الكافرين ، أى المشركين والوثنيين والملحدين وأمثالهم ، محكوماً عليهم بالفناء ، وهذا يقتضى أن يستعد المسلمون بالقوة والمنعة والعلم والروح القوى والخلق المتين ، لتنفيذ ما أمرهم الله به ، فإن فرطوا حوسبوا على ذلك ، فنالوا جزاء تفريطهم فى الدنيا والآخرة .

هذا وفى التخيير بين المن والفداء فى قوله تعالى : « فإما مناً بعد وإما فداء » كلام ليس هـذا موضع تفصيله وبيان ما يدل عليه فى شأن موقف الاسلام من « الرق » فإنما نحن بصدد ما فى السورة من مقارنات .

ومعنى قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » يتوقف إدراكه على المراد « بالحرب » هنا : هل هى الحرب التى كانت فى عهد الرسول حتى تم نصر المؤمنين ، وانكسرت شوكة المشركين ، فإذا وضعت هـذه الحرب أوزارها ، أى أثقالها وأحمالها ـ وهو كناية عن انتهائها ـ فلا حرب بعدها ، أو الحرب مستمرة ما دام هناك شرك ووثنية .

وقد فهم بعض الصحابة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولكنه لم يقر هذا الفهم .

فإنه يروى عن جبير بن نفير قال : إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال إنى سيبت الخيل ، وألقيت السلاح ، ووضعت الحرب أوزارها ، وقلت لا قتال . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « الآن قد جاء القتال ، لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الناس ، يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » .

وهذا يدل على أن « الجهاد » باق ، لأن الأرض لا تخلو من كافرين ومؤمنين ، ولذلك قال مقاتل فى تفسير قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » معناه : حتى لا يبقى مشرك .

وفى القرآن الكريم آية أخرى تحدد الأمد الذى ينتهى فيه القتال والجهاد ، وهى قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » ، ويفهم منها أن القتال والجهاد لا يبطلان ما دام هناك فتنة فى الدين ومحاولة لصرف المسلمين أو صدهم عن دين الحق الذى ارتضاه الله ، وختم به رسالاته .

ولما كان هذا الصد موجوداً فى كل زمان ، وكان العالم لايزال فيه فريق يحاول فتنة المسلمين عن دينهم ، وإخراجهم من ديارهم ، والمظاهرة على إخراجهم ، فالجهاد باق ، وهو فرض على المسلمين للدفاع عن دينهم وأنفسهم وبلادهم .

ولهذا جاء فى الحديث عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « الجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال » .

وقال الكلبى : حتى يسلموا أو يسالموا .

وقال الفراء : حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسالم .

والخلاصة : أن أسباب الجهاد فى الاسلام ترجع إلى أمرين :

أحدهما : اقتلاع جذور الشرك والوثنية وما فى معناهما من الإلحاد والوجودية ونحو ذلك ، فإنه لا يليق بالانسان الذى كرمه الله بالعقل ، وأمره بأسباب العلم ، ويسر له إدراك البرهان الساطع فى شأن الألوهية ، أن يتجه إلى غير الله ، أو أن يفسد حياته باعتقاد فاسد يؤدى به إلى كثير من الأوهام والخزعبلات ، أو يخرجه من دائرة الثقة والطمأنينة النابعة من الإيمـان .

الثانى : تأمين الدعوة الاسلامية ، والدفاع عن حرم الاسـلام والمسلمين ضد المعتدين الذين يعملون على زلزلة المؤمنين عن عقائدهم ومثلهم أو على استعمار بلادهم ، أو إخراجهم من ديارهم .

هذا هو منطق الاسـلام فى الأسباب التى تدعوه إلى امتشاق الحسام : دفاعا عن كرامة الانسان ، وعن دعوة الحق ، وعن مثل الفضيلة والخير .

ويقول الله تعالى مبيناً الحكمة فى تشريع الجهاد :

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولـكن ليبلو بعضكم ببعض » أى ذلك حكم الله فى الكافرين ، والله قادر على أن ينتصر منهم بفعل منه مباشر ، كما انتصر قبل من الطغاة والظالمين ، بالقارعة والصاعقة والصيحة والرجفه والغرق وغـير ذلك ، ولـكن الله شرع الجهاد لحكمة بالغة ، ولتحقيق مصالح يعلمها ، منها ابتلاء الله بعضكم ببعض ، أى اختباركم وإظهار حقيقتكم ودخائل أنفسكم ، كما قال تعالى فى سورة آل عمران : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمـا يعـلم الله الذين جاهـدوا منكم ويعلم الصابرين » .

ومنها إيقاع العـذاب الدنيوى بالـكافرين على أيدى المؤمنين ، شفاء لصدور

أهل الحق حين يرون الباطل مخذولا ، كما قال تعالى فى سورة التوبة : « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » .

وهذه الآية الأخيرة تدل على أن المؤمن يجوز له أن يعمل للاشتفاء من أعداء الله بهزيمتهم والتنكيل بهم ، وأن يلتمس إذهاب الغيظ من قلبه بجهادهم ، حيث جعل الله تعالى شفاء الصدور ، وذهاب غيظ القلوب من ثمرات القتال المشروع .

ومن بقية الموازنة بين المؤمنين والكافرين ما ذكره الله تعالى من أنه تكفل للشهداء بحفظ أعمالهم ، وعدم إضلالها ، أى إذهابها هباء دون ثمرة ، بل يبرز آثارها ، ويحقق ؛ مهما طال المدى ؛ أهدافها فى الدنيا ، وينميها ويكثر ثوابها فى الآخرة ، وذلك قوله تعالى : « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم » .

والواقع الذى تدل عليه حوادث التاريخ أن أعمال المجاهدين المخلصين المضحين بأنفسهم فى سبيل الله ، لا تذهب عبثا ، ولا تضيع هباء ولو غلبوا على أمرهم ، وتراءى للناس أن مثلهم لم تظهر ولم تنتصر فى أول الأمر ، ذلك بأن المبادىء والعقائد التى كانوا يكافحون عنها تحيا بهذا الكفاح ، وكأنها شجرة لا ترويها إلا دماء المجاهدين ، ويظل الناس يذكرون قيامهم للنضال ، وانبعاثهم للتضحية فى سبيل الله ، ويكبرون فى ذكراهم الاقدام والشجاعة ، ويعرفون حقهم وحق مبادئهم ، فيجعل الله لهم بذلك لسان صدق فى الآخرين - وهو الذكرى الطيبه - ويجعل لمبادئهم ومثلهم حياة من بعدهم ، طال الأمد أو قصر ، ولذلك يقولون : أن المبادىء الساميه وتعاليم الحق والفضيلة لن تموت ، بل تحيا وتنتصر باستشهاد أصحابها ، وتلك سنة من سنن الله فى خلقه « لا يضل ربى ولا ينسى » .

وقوله تعالى : « سيهديهم ويصلح بالهم » وعد بفضل آخر للشهداء ، والهداية بالنسبة للشهيد الذى قتل وانتهت حياته فى الدنيا ، هى الهداية إلى الجنة ، كما فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم » ، وإصلاح بالهم وعد جاء على سنة وعده تعالى للأحياء ، فكما قال عن إحياء المؤمنين فى أول السورة « كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »

قال عن شهدائهم هنـا : « سيهديهم ويصلح بالهم » وفى ذلك إشعار بأن لهم حياة أخرى، هى المذكورة فى قوله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بمـا آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وقوله تعـالى : « ويدخلهم الجنه عرفها لهم » يشير إلى عرفان المؤمن بالجنه التى وعد المتقون ، فقـد وصفها الله فى كتابه فاستقرت صفتها فى نفوس عباده المخلصين ، فعشقوها وتطلبوها وعملوا لها .

هـذا وفضل الشهداء عظيم ، وقـد رويت فيه أحاديث كثيرة ، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

« يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعـده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمـان » .

وفى رواية : « ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها » .

* * *

٣ — وتأتى بعد ذلك موازنة ثالثة هدفها بيان عاقبة الصراع الذى يكون بين الحق والباطل ، إذ يقول الله عز وجل :

« يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .

وقد تضمنت هذه الآيات الخمس : وعداً للمؤمنين مشروطاً بشرط ، ووعيداً للكافرين معللا بعلة ، وتذكيراً بمـا مضى من تاريخ الجبابرة ، وكيف قصمهم الله ، وأن هذه سنته جل شأنه فى كل كافر ، أن يدمر عليه ، ويحطم ما يبنى من صروح

الباطل ، كما تضمنت سر هذا الوعيد وذلك الوعد ، مبينة أن الذين آمنوا قد آووا إلى ركن شديد ، هو الله مولاهم ، وأن الكافرين قد حرموا حين فرغت قلوبهم من الإيمان أن يكون لهم ركن يأوون إليه ، ويشتد به أزرهم .

فأما الوعد المشروط بشرط ، فهو قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ومثله قوله تعالى فى آية أخرى : « ولينصرن الله من ينصره » والآية الأولى فيها تعليق صريح استعمل فيه حرف « إن » الشرطية لإفادة أن نصر الله لعباده مشروط بنصرهم له ، والآية الثانية تعليق فى المعنى ، لأنها تقرر أن نصر الله إنما هو لمن ينصر الله .

وإذا علق الله شيئاً على شيء ، وربطه به على هـذا النحو أو ذاك ، فهو تعبير عن سنة من سننه التى لا تتبدل ، وعن قانون شبيه بقوانين الحياة الكونية ، فكما أن الشمس والقمر والنجوم والبحار وجميع العوالم مرتبطة بقوانين تكوينية إلهية لا تحيد عنها ، ولا يمكن أن تختل أدنى اختلال ، كذلك عالم الانسان له قوانين من أمر الله تدور حياته عليها ، ويتعامل أفراده طوعا أو كرها بموادها ، ومن مواد القانون الإلهى للإنسان : أنه إذا كان مؤمنا صالح العقيدة فى الله ، ثم جاهد قاصداً بجهاده أن ينصر الله فلا بد من أن ينصره الله ، ويثبت قدمه ، ذلك بأن الضعف والخذلان إنما يأتيان المرء من إحدى ناحيتين : إما من ناحية فراغ قلبه من عقيدة تطمئنه ، وإيمان يحثه ويدفعه . وإما من ناحية فقدانه الإخلاص فيما يقدم عليه ، بأن يكون له اتجاه إلى غير الله ، والمؤمن قد برىء من كلتا الناحيتين ، فإن له من عقيدته فى الله قوة تملأ قلبه طمأنينة وثقة ، وتبعثه على الاقدام فى غير تردد ولا تهيب ، وإن له من إخلاصه ما يجعله متجها إلى ربه وحده لا يشرك به شيئا ، وأحق الناس بهذا الاخلاص والتوحيد هم المجاهدون الذين يحملون أرواحهم على أكفهم ويخوضون غمرات الموت ، لا يعرف المرء منهم إذا أصبح هل يمسى ، وإذا أمسى هل يصبح ! إن هؤلاء هم أجدر الناس بإخلاص النية وتوحيد القصد لله تعالى ، فإن الله هو أغنى الشركاء عن الشرك ، وإنما المجاهد هو من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا ، ولا يمكن أبدا أن يهزم من اتجه بجهاده ذلك الاتجاه الأسمى ، ولقد هزم

جيش المسلمين الأولين أنفسهم فى بعض المواقع التى خاضوها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما تنكبوا السبيل وقصدوا ما لم يكن لهم أن يقصدوه من الغنائم ومتاع الدنيا ، وسجل عليهم القرآن الكريم ذلك إذ يقول : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ».

وذكرهم بما سلف من « الربانيين » الذين كانوا يقاتلون مع الأنبياء لا يقصدون إلا وجه الله ورضاه ، إذ يقول : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

وهكذا نجد أن قضية نصر الله للمؤمنين الذين ينصرونه ، وتثبيته أقدامهم فى الحياة هى قضية إلهية ، وسنة كونية فى عالم الانسان ، والعكس بالعكس ، فعلى الناس أن يسألوا أنفسهم كلما وجدوا ضعفاً أو انهزاماً أو تخلفاً أو تزلزلا ، فيعرفوا الأسباب بعد مراجعه الحساب ! .

وأما وعيد الله للكافرين ، وعلته التى أرشد الله إليها ، فذلك قوله جل شأنه : « والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .

فالتعس والتعاسه : السقوط والعثار واختلال الأمر والشقاء ، وهو عكس النصر وتثبيت الأقدام اللذين وعدا الله بهما المؤمنين المخلصين الناصرين له ، وقد ذكر الله ذلك مرة بطريق الاشارة ، حيث جاء حرف « الفاء » فى قوله تعالى : « فتعساً لهم » مؤذناً بأن علة هذه التعاسه هى كفرهم ، كأنه قال : كفروا فاستحقوا بكفرهم التعاسه والتزلزل ، ومرة بطريق التصريح حيث علل المصير الذى حكم به عليهم ، بأنهم كرهو ما أنزل الله ، والكراهيه عاطفه من شأنها أن تحمل صاحبها على أن يلتوى عما يكره ، وأن ينظر إليه نظرة تبرم به ، وتخلص من منطقه ،

فلا ينتفع به ولا يركن إليه ، ولما كان ما أنزله الله على عباده إنما هو إرشاد إلى أقوم الطرق ، وتوجيه إلى ما يكون به كل صلاح وكل سعادة ، فهم بكراهيتهم إياه قد فقدوا النور الذى يكون به الاهتداء ، فاختلط عليهم الأمر ، وتراكمت أمام أعينهم ظلمات الحيرة ، فشقوا وخسروا ، وضلت أعمالهم وحبطت ، فليس لها فى الدنيا أثر يدوم ، وليس لها فى الآخرة وزن يقوم : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

ويقرب من هذا المعنى أن نفسر كراهيتهم لما أنزل الله بكراهيتهم للمثل والفضائل ، وتبرمهم بها ، وحرصهم على التحرر منها والانطلاق من قيودها ، وأولئك هم الذين يقولون : ما لنا ولهذه المقاييس التى فرضت علينا وما اشتركنا فى فرضها ، ولا أخذ رأينا فى تقريرها ! وفى جميع المجتمعات من هذا الصنف أفراد متحللون إباحيون ، لا هم لهم إلا مسايرة الشهوات ، ومقارفة اللذات ، فإذا رأوا مستمسكاً بالفضيلة والايمان سخروا منه ، وإذا سمعوا ناصحاً يبذل لهم النصيحة ضاقوا به ذرعا ، ولم يطيقوا له سمعا ، ومن سنة الله تعالى أن يبتلى أهل الدين والغيرة والاصلاح بأمثال هؤلاء ، وفى مقدمة من ابتلى بهم الأنبياء ، فكلهم بذل النصح لقومه ، فاستثقلوا نصحه ، وتبرموا به ، حتى أخذهم العذاب : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » ، « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ، فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » .

ومن أعظم أساليب القرآن الكريم سوقه القصص وأخبار الأمم السابقة ، وما قابلوا به أنبياءهم ، وما صار إليه أمر المعرضين منهم عن دعوات الحق .

فقد ذكر الله قصة فرعون ـ مثلا ـ فى عدة مواضع من كتابه الكريم ، وقص

علينا ما بلغ من طغيانه وعتوه ، وأنه ظل يتعالى ويتمادى حتى ادعى الألوهية لنفسه وأنكرها على إله موسى وإله العالمين جل جلاله ، ثم انتهى أمره إلى الغرق ، فلم يستطع أن يدفع عن نفسه ما أخذه الله به من النكال والوبال .

ومن ذلك قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ، وأهديك إلى ربك فتخشى ، فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى » .

وهذه آيات ناطقة معبرة مصورة تفيض بيانا وتحذيرا ، وترسم فى كل جانب من جوانب هذه القصة لوحات رائعة ، تمثل ذهاب موسى إلى فرعون ، وهو ذلك الملك الطاغى المخيف ، ثم موقفه بين يديه وهو يعرض عليه التزكية والهداية عرضا رقيقا مهذبا ، ثم موقفه وهو يريه الآية الكبرى ، عصاه التى تنقلب ثعبانا مبينا ، ثم ما كان من لجاج فرعون وتكذيبه وعصيانه ، ثم حركته المضطربة حين أقامته هذه الدعوه وأقعدته وأقضت مضجعه خوفا من آثارها فى شعبه الذى استضعفه وطغى عليه واستخف به ، وأنه أدبر عن موسى ودعوته ، وجعل يسعى سعيه لإفساد مفعول هذه الدعوة ، وإضلال الناس عنها بالتخويف والإرهاب والتعالى ، وأنه حشر الناس حشرا ، وجمعهم جمعا لينادى فيهم مجتمعين بباطله وكذبه ، إذ يزعم أنه هو ربهم الأعلى ، ثم عاقبته حين أخذه الله بعذابه منكلا به نكال الآخرة والأولى ، جاعلا منه عبرة للمعتبرين .

كل ذلك تفيض هذه الآيات ببيانه ، كأحسن ما تكون الإفاضة ، وترسم مشاهده وصوره كأروع ما يكون الرسم والتصوير ! .

ومن ذلك قوله تعالى : « وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب » .

والطغيان واضح فى هذا الجانب من قصة فرعون ، كما هو واضح فى الجانب الذى ذكرناه من قبل .

ومن يقرأ سورة « القصص » يجد فيها كثيرا مما يبين طغيان فرعون ، ونشره الرعب والخوف فى شعبه ، وفتكه بالأبرياء ، لا لشىء إلا ليثبت دعائم ملكه ، وينفى الأوهام التى تخيل له فى ليله ونهاره أن هناك تآمراً عليه ، وتدبيراً لإهلاكه ، وإن أول هذه السورة ليخلص أمر هذا الطاغية فى أوله وآخره ، وأمر قومه معه ، وما أراد الله لهم من عز بعد الذل ، ومن قوة وتمكين بعد الضعف والخوف ، وذلك إذ يقول الله جل جلاله : « طسم ، تتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذون » .

وكما ذكر الله فرعون وبغيه ، ذكر قارون واغتراره بماله ، وعاقبة هذا الاغترار ، فأنبأنا أنه آتاه من الكنوز ما يشق على أولى القوة حمل مفاتحه ، وصوره لنا فرحا بطرا يبغى الفساد فى الأرض ، ويعلن فى غرور وكبرياء أنه أوتى ما أوتى على علم عنده ، ثم صوره خارجا على قومه فى زينته وأبهة موكبه ، مرموقا منهم ، يتمنى الجاهلون مثل ما أوتى ، ويأبى العالمون إلا تفضيل ثواب الله الذى ادخره للمؤمنين ، ثم صور عاقبته وأمر الذين تمنوا مكانه فقال : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .

وكذلك ذكر الله عاداً وثمود وأصحاب الأيكة وقوم نوح وقوم لوط وغيرهم ، مبيناً ما أنزله بهم من قوارع وقواصم .

فالقرآن الكريم مملوء بهذا اللون من القصص المحذرة التى يسوقها الله تعالى فى أجلى بيان ، ويصورها أروع تصوير ، ويناشد الناس أن يفقهوا عبرها ، ويسمعوا نذرها .

وقوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض » يشمل السير الحقيقى للكشف والمعرفة والسير بعين البصيرة والتأمل عن طريق تصفح التاريخ ، واستجلاء عبره .

والمفسرون يفسرون قوله تعالى : « دمر الله عليهم » بمعنى : أهلكهم ، ولكن شتان بين العبارتين ، فإن قوله جل جلاله : « دمر الله عليهم » فيه من القوة والروعة ما يملأ القلوب وجلا ، ويهزها هزا ، إذ هو تمثيل لحالهم ، كأنهم كانوا يشيدون صروحا قوية ، ويعمرون الدنيا بكل ما هو مادة وزخرف ، دون اعتماد على روح الإيمان وقوته ، ثم لا يلبثون أن يروا كل ما شادوا مدمراً عليهم ، محطماً فوق رءوسهم .

وهذا يشمل تدبيرهم المادى الذى يتمثل فى الصروح والحصون والقلاع ، وتدبيرهم السياسى الذى يتمثل فى الاحتياط وأخذ الحذر واتخاذ الأعوان والزبانية والعملاء ، وإتقان أساليب الكيد والبغى والمكر والكبت ، كما رأينا من المستعمرين والمغتصبين ، فإذا جاء وعد الله دمر عليهم كل بنيان أقاموه ، وأفسد عليهم كل تدبير دبروه « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

وفى القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل موجزة حينا ، وحينا مطولة ، تحس إذ تسمعها بالهول مجسما ، ويخيل إليك أن لها دويا يكاد يصم الآذان ، كقوله تعالى فى أهل ثمود : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها » وفى قوم لوط : « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » وفى وصف حال المؤمنين يوم الأحزاب : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » وفى وصف جلاء اليهود من بنى قريظة : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار » .

إلى غير ذلك من الآيات الموعدة المرعدة !.

وقد ذيل هـذا التذكير الإجمالى الذى يشير إلى ما فصلناه مما أصاب الطغاة الأولين ، بقوله تعالى : « وللكافرين أمثالها » ، وهو أيضاً وعيد مخيف ، ومثله قوله تعالى : « وما هى من الظالمين ببعيد » . وفى ذلك تقرير صريح بأن سنة الله فى أخذ الظالمين لا تتبدل « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين » .

وقد ختم الله هـذه الموازنة بين عاقبة المؤمنين ، وعاقبة الكافرين ، بموازنة إجمالية لبيان السر فى هذا التوزيع العادل بين الفريقين فقال : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » .

ومعنى ولاية الله للمؤمنين أنه معهم بنصره وتأييده كما يكون الولى مع وليه ، والحليف مع حليفه ، وقد ورد هذا المعنى كثيراً فى القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » ، « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » ، « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » ، « إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

أما الكافرون فقد حرموا هذه الولاية بخروجهم على الله ، وكفرهم به ، فهم أعداؤه وطرداؤه .

ولما ارتجز أبو سفيان يوم هزيمة المسلمين وانتصار المشركين فى غزوة أحد ، قائلا : « اعل هبل ! اعل هبل ! » أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يجيبوه فيقولوا : « الله أعلى وأجل » فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » فأجابه المسلمون بأمر رسول الله : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

« ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى » فصدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؟